من أعلام جمعية العلماء المسلمين،

الشيخ عمار مطاطلة: ودوره الجهادي والتربوي في منطقة سبدو. 1956/1953

بن يوب محمد
أستاذ الانثروبولوجيا
المركز الجامعي غيلزان

مقدمة:

شكلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مكونا رئيسيا داخل الحركة الوطنية الجزائرية، واجهت المشروع الاستعماري بمشروع إصلاحي استمد من التعاليم الإسلامية والذي سيدعم نضال مكونات الحركة الوطنية الأخرى.

غير أن مثل هذا المشروع لم يكن ليتجسد في الواقع لولا أولئك الرجال الذين ضحوا بكل ما يملكون من اجل تبليغ رسالة الجمعية بمنطقة سبدو، ومن بينهم العلامة المرحوم الشيخ عمار مطاطلة حيث لاتزال مدرسة الجمعية وأعضاؤها وتلامذته شواهد على الدور الكبير الذي قدمه في سبيل نشر العلم والمعرفة في هذه المنطقة. والتصدي الى المشروع الاستعماري الهادف الى محو الشخصية الجزائرية تماشيا مع مبادئ الجمعية.

نشأته في حاضنة علمية:

ولد عمار مطاطلة في 26 نوفمبر 1915 ببلدية عين القشرة ولاية سكيكدة. نشأ في بيئة دينية مشبعة بالتعاليم الإسلامية كان أبوه محمد بن رابح فقيها وقاضيا تأثر مبكرا بالحركة الإصلاحية التي قادها بن باديس في عشرينات القرن 20 قبل تأسيسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 1931 .[1]

وهكذا توفرت الظروف العائلية والثقافية لان يكتسب الطفل عمار ثقافة إسلامية على مراحل العمرية على يد كبار الفقهاء والمشايخ. لقد تعلم أحرف الهجاء في سن الرابعة على يد معلم القرآن محمد بن علاوة وختم القرآن الكريم عند بلوغه سن الحادية عشر. مكنه ذلك من القيام بصلاة التراويح وإمامة الجماعة ،ثم تتلمذ على يد الشيخ مسعود بن العيساني حيث أخذ عنه مبادئ النحو والفقه، ستتعمق مع مشايخ آخرين منهم الشيخ احمد بن العابد و الشيخ عبد العزيز بن الحاج الصادق أمام مدينة القل.

وتبقى أهم ترقية حظي بها الشيخ عمار مطاطلة هي لحظة التحاقه ضمن عشرة طلاب بالجامع الأخضر بالقسطنطينية في شهر سبتمبر 1934 لحضور الحلقات الدراسية التي كان يشرف عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس[2]، مما زاد تعلقه بهذا المعلم ومشروعه الإصلاحي. وكان أمله مواصلة دراسته في جامع الزيتونة، إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 وما تلاها من إجراءات حالت دون التحاقه بتونس.

رحلة عمار مطاطلة و رحلته القدرية إلى سبدو:

انتهت الحرب العالمية الثانية سنة 1945 تعالت الجمعية إلى النشاط بعدما تجذرت في الجسم الاجتماعي الجزائري. وقد راهنت منذ البداية على شبكة من المدارس الحرة لتمرير خطابها. وقد كان عمار مطاطلة من بين مجموعة من المعلمين التي ستعتمد عليهم الجمعية .عيّن في خريف 1945 وبقرار من لجنة التعليم بمدرسة التهذيب بشاطادون (شلغوم العيد حالب)[3]، فقبل هذا التعيين على الرغم من أن وضعه المادي كان أفضل حيث كان يتقاضى مرتبات تفوق بثلاث مرا ت ما يتقاضاه معلمو مدارس الجمعية. وفي سنة 1951 انتقل إجباريا إلى مدرسة التربية الواقعة بحي الحمري بوهران دون رضاه ولا مراعاة لظروفه العائلية، ثم منحت له مسؤولية إدارة المدرسة بعد إقالة مديرها ليخلفه العربي سعدوني في نفس المدرسة، ثم يعين مديرا من جديد في مدرسة مديوي بنفس المدنية. وأخيرا يقرر مسؤولو الجمعية وعلى رأسهم الشيخ العربي التبسي تعيين الشيخ عمار مطاطلة إلى سبدو لتولي التدريس هناك وقد قبل ذلك دون تردد احتراما للشيخ العربي التبسي.

صاحب المبادرة في إنشاء مدرسة الإرشاد والتعليم بسبدو:

التحق الشيخ عمار مطاطلة سبدو [4] سنة 1952 وهو عازم على أداء رسالته التربوية لكنه تفاجأ بغياب مدرسة مناسبة لمشروع الجمعية.فهي اصلا كانت عبارة مرآب كبير على طرف الشارع الرئيسي لسبدو أجرته الجمعية المحلية لاحتضان مدرسة لإقامة الصلاة والدروس الدينية. وقد صدر أمر تأسيسها في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية تحت رقم 2998 ليوم 25 ماي 1945[5].

لقد وجد الشيخ عمار مطاطلة هذه المدرسة في حالة كارثية حيث كانت تتشكل من غرفتين بدون مرافق كالماء ودوره المياه ولافناء للاستراحة. وكما يذكر في مذكراته فانه لم يجد مدرسة وإنما قبوا مشكلا إلى جزئين في كل منها سبورة ومقاعد مرصوصة جلها محطم، فاشمأزت نفسه لهذا المنظر وأراد الرحيل لولا الاحترام الذي كان يكنه للشيخ العربي التبسي. وحفاظا على سمعته وسمعة الجمعية. قرر الشيخ عمار مطاطلة تغيير هذا الوضع بطرحه فكرة بناء مدرسة على الجمعية المحلية تتشكل من فصلين والى جانبها مسجد وتدعيمها بالمرافق الضرورية. وجد تجاوبا وإرادة قوية لدى أعضائها ومنهم الحاج احمد

الشيخاوي وابنه عبد القادر،تشاور وبن دالي والحسين ولد دحو ومحمد بن حلوش[6]. وفي اجتماع حضره الشيخ عمار المطاطلة وهؤلاء الأعضاء حظى المشروع بالموافقة وشرع في انجازه فورا حتى لا يتأخر أبناء القرية عن الدراسة. ومع بداية خريف 1953 اكتمل المشروع وأضحت كل من المدرسة والمسجد جاهزين لأداء دورهما.

نظم حفل بهيج بمناسبة افتتاح المدرسة يوم 23 سبتمبر 1953 [7] ،الذي أعلن عنه في صحيفة البصائر.وقد حضر هذا الاحتفال خلق كثير. فبالإضافة إلى سكان قرية سبدو استدعي لتشريف الحفل عضوين بارزين من الجمعية وهما الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين مال الجمعية والشيخ السعيد الزموشي بصفته ممثلا لها في القطاع الوهراني. كما حضر الحفل عدد كبير من معلمي مدارس الجمعية بالمدن والقرى المجاورة لسبدو ومنهم الشيخ مصباح حويذق الذي كان مدرسا بعين غرابة وعدة شخصيات تلمسانية ساهمت ماديا في تشييد المدرسة والمسجد وتجهيزهما بكل الوسائل الضرورية. وظلت هذه المدرسة البنت المدللة لدى رجال الإصلاح بتلمسان مرتبطة بالمدرسة الأم بدار الحديث بتلمسان. تتلقى الدعم منها من جميع النواحي حتى تؤدي رسالتها التربوية التي استند اليها رجالات الجمعية على راسها ابن باديس في محاربتهم للمشروع الاستعماري حيث صرح في هذا الصدد بما يلي " انا احارب بالعلم، ومتى انتشر التعليم في ارض اجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية كسوء المصير [8]".

وقد ظل الشيخ عمار مطاطلة متعلقا بمدرسة دار الحديث وأبيها الشيخ الإبراهيمي الذي يعتبر الرجل الثاني للجمعية بعد دعمها بعد زعيمها الأول الشيخ عبد الحميد بن باديس ويعترف له بدوره في قيادة النهضة الجزائرية الحديثة وجهاده في سبيل عروبتها وإسلامها. لكنه يتأسف كثيرا لما انتهى إليه هذا العلامة عندما فرضت عليه الإقامة الجبرية من طرف السلطات في بداية الاستقلال.

بين المدرسة والمسجد نشاط متواصل:

منذ تأسيسها سنة 1931 قدمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفسها على أنها حركة دينية ثقافية هدفها الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائريين، بالعودة إلى القيم الإسلامية النقية، وتطهيرها من البدع والخرافات والتدنيس الذي احل بالدين مع المستعمر دون الانغلاق على منجزات العلوم الحديثة وإبداعات الشعوب تماشيا مع فكر ابن باديس النتحور حول ضرورة انبعاث الامة الجزائرية واعادة تشكيل الوطن المسلوب بالوسائل السلمية على المدى البعيد اي الحرص على الاستقلال كهدف مستقبلي[9]. وقد راهنت الجمعية في تحقيق هذا الهدف على مؤسستين المدرسة والمسجد. وعلى هذا الأساس احتضنت مدرسة الإرشاد بسبدو والتعليم صفوف دراسية تضم كوكبة من التلاميذ بإشراف من عمار

مطاطلة. كان يتلقى هؤلاء التلاميذ دروس في قواعد اللغة العربية والحساب والتاريخ الإسلامي وعلوم الدين بطريقة حديثة وبعيدة عن تلك المعتقدات والممارسات المالية التي كانت تنشره في الارياف الجزائرية بتدعيم من الحركة المرابطية بشكل يعاير المبادئ الاسلامية الاساسية التي عمل بها السلف الصالح كتقديس الاولياء واحترام الاموات، الاعتقاد بالوساطة بين الله والمعبد ، والانحراف ... الخ[10].

واستطاعت المدرسة تحقيق نتائج نسبة نجاح 100 % في امتحان الشهادة الابتدائية خلال موسمين متتابعين 1954 و 1955 ومن التلاميذ الذين تتلمذوا على يد الشيخ عمار مطاطلة, بوبكر احمد ,نور الدين كروم ,شيخاوي صليحة ,وبكارة فاطمة. هذه التلميذة التي يعترف لها الشيخ باجتهادها وجرأتها وخصالة لسانها وتجلى ذلك في تلك الكلمة الترحيبية التي ألقتها أمام المدعوين لحفل افتتاح مدرسة سبدو عبرت فيها عن تضحيات رجال الجمعية من اجل تجسيد مشروع مدرسة سبدو والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية بالجزائر أمام محاولات الفرنسة. وأبدت عن تعطش الناشئة المسلمة السبداوية في العلم والمعرفة و الحرية والاندماج وما جاء في كلمتها : " انس بدو ترحب بكم ومدرستها الفتية تفتح ابوابها تحتضنكم كما تحتضن الام الحنون ابناءها وان قدومكم الميمون يشرفنا ويملا قلوبنا غبطة وسرورا ويدفعنا الى الامام ويزيدنا ايمانا مع ايماننا بهذا المبدا السامي مبدا جمعية العلماء الذي اسسه رجال صدقوا ما عهدوا اليه عليه ... وان شعوركم النبيل و عطفكم على هذا المشروع الذي سيعود بالخير على الجميع ليجعلنا نتبعث من جديد الى الامام مواصلين الخطى نحو الامل المنشود بادن الله وان كل خطوة قطعتموها من ارض الجزائر الحبيبة تشهدكم بانكم عرب مسلمون وانكم جزائريون لاتقبلوا بهذه الثلاثة بديا وان يومكم هذا وامثاله من ايامكم المشهودة برهانا ساطعا و حجة دامعة ضد ___ الطغان الظالمون من انكم فرنسيون او مسلمون فرنسيون كما يعبرون [11]

كما كان المسجد المجاور لمدرسة سبدو فضاء آخر كان ينشط فيه الشيخ عمار مطاطلة حيث كان يقيم الصلوات الخمس والجمعة ويقدم دروس الوعظ والإرشاد في أوقاتها وفي ليالي رمضان. وكانت خطب الجمعة مناسبات للتعرض إلى قضايا الأمة وفي مقدمتها القمع الاستعماري الفرنسي في الجزائر وحتمية التصدي له. ففي إحدى جمعات مارس 1955 وفي مرحلة كانت الثورة التحريرية المباركة قد امتدت في عدة مناطق من البلاد خطب الشيخ عمار مطاطلة في أهالي سبدو يحثهم فيها على إزالة غفلتهم والتصدي للمحتل بمثل ما فعل إخوانهم في جهات أخرى من الوطن حيث يقول : "لا تتخلف عن الركب .فتحرك لتلتحق بالقافلة قبل أن تدوسك الأقدام، فإياك أن تسدل على نفسك رداءة الغفلة ... وانهض للحاق بإخوانك الذين أعلنوا ثورة حتى الاستشهاد."

المستعمر يلاحق الشيخ عمار مطاطلة:

كان المستعمر الفرنسي منذ البداية يدرك خطر المشروع الإصلاحي للجمعية على مستقل وجوده في الجزائر. هذا المشروع الثقافي الاجتماعي ساهم في تحديد مجموعة سياسية دينية في الوضعية الاستعمارية على اساس تفرد الامة الجزائرية وتميزها واستحالة اندماجها في الامة الفرنسية" لان هذه الامة الجزائرية المسلمة ليست في فرنسا و لاتريد ان تصبح فرنسا ومن المستحيل ان تصبح فرنسا حتى لو جنسوها [12] "، وبالتالي حررت ديناميكية حفزت على تطور استقلالية المجتمع، السياسي الجزائري كما تبلورت مع الدعوات الاستقلالية لدعم الجمعية ابن باديس في السنوات الاخيرة من حياته وتجلت في دعواته الى الحرية بقوله: " تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لاجلها [13] " ليشكل دعما للاتجاه الاستقلالي الذي نادى به حزب الشعب وتجسد مع قيام الثورة التحريرية. وعلى هذا الأساس ظل رجال الجمعية والمتعاطفين معهم محل ملاحقات وتوقيفات. ومن هنا يجب أن نفهم تعرض مدرسة الإرشاد بسبدو إلى مداهمات ومساءلات للشيخ عمار مطاطلة وتلامذته حول البرامج الدراسية وعلاقة المدرسة بالثورة. وتنامت هذه المراقبة بعدما انتقلت نيران الثورة التحريرية إلى منطقة سبدو بعدما تشكلت خلية ثورية طلائعية بدوار أولاد ورياش بنواحي درمام كان هدفها الإشراف على الثورة بالمنطقة في خريف 1955، ثم قيامها بأولى العمليات ضد احد المستوطنين بمنطقة سبدو المدعو دياز. قادها المرحوم بن بختي بومدين المدعو فاتح [14]. لتنتقل القوات الاستعمارية بسبدو بعد ذلك اعتقال كثير من أعضاء الجمعية واغتيال عنصرين هامين كانا يدعمان الحركة الإصلاحية ماديا ومعنويا وهما بن حميدي على المدعو بوسدرة وشقيقه عبد القادر في أفريل 1956 [15]. ثم جاء دور المدرسة ومسجدها فقد طوقتها فرقة عسكرية مدججة بالسلاح يتقدمها حاكم تلمسان في 09 ماي 1956 واتخذت قرارا بإغلاق المؤسستين أمام التلاميذ وشيخهم عمار مطاطلة ومما ذكره هذا الحاكم لتبرير خطوته: " أننا بكل أسف نغلق اليوم أبواب المدرسة والمسجد حفاظا على الأمن وعندما تنطفئ هذه النار نعيد إليكم المفاتيح وتعودون إلى أعمالكم [16]".

وبعدها وُضِعَ الشيخ عمار مطاطلة تحت الإقامة الجبرية ريثما تحين محاكمته يكن الله حفظه ولم تتمكن القوات الاستعمارية من تحقيق هدفها حيث سهلت له فرقة من جيش التحرير الوطني مغادرة سبدو نحو وجدة المغربية في نهاية ماي 1956. وانتقاما منه أخرجت السلطات الاستعمارية عائلة الشيخ من مسكنها التابع للمدرسة. والأكثر من ذلك امتدّ القمح الاستعماري إلى أبيه واخويه حيث هدمت منازلهم على رؤوسهم في ريف القل. أما ولداه احمد وعبد الحميد اللذان كانا يدرسان بمعهد عبد الحميد بن

باديس بقسنطينة انتقلا إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة ثم ابلغ أنهما جندا في جيش التحرير الوطني في الجهة الشرقية.

وفي المغرب واصل الشيخ عمار مطاطلة عمله التربوي والجهادي من خلال دفعه اشتراكات للجبهة. وبعد الاستقلال ورغم المعاناة البيروقراطية فقد استمر الشيخ في العطاء سواء في المدرسة أو المسجد مدافعا عن الدين بالتي هي أحسن

استنتاج:

يعتبر الشيخ عمار مطاطلة واحدا من اعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين ___ على ارض الواقع المشروع الثقافي ___ ابن باديس و التصدي لمشروع الاحتلالي الفرنسي للجزائر وقد شاءت أن تكون سبدو وان تكون حاضنة للمشروع التربوي والنضالي بدءا من 1952 إلى غاية 1956لقد شكل الشيخ عمار المطاطلة نموذج العالم العامل عند ضحى شبابه ومنصبه من اجل القضية الجزائرية من اجل تخليصها من براشين المستعمر عبر يرنامج تربوي مستمر من مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مخرجاته اعداد جيل متشبع بالوطنية ومستعد لمواجهة المحتل وقادر على تحمل المسؤوليات في مرحلة الاستقلال لبناء الدولة الفتية

الإحالات والهـوامش :

1- Lahouari Addi ,l’impasse du populisme :l’Algérie collectivité politique et Etat en construction . ENAL Alger 1990 , p31

2- عمـار مطاطلة ، مذكرات حياة و ذكريات أحداث ، الجاحظية ، الجزائر 2000 ، ص 7 .

3- المـرجع نفسه ، ص 8 .

4- سبـدو واحدة من بلديات ولاية تلمسان تقـع جنوبا على بعد 37 كلم ، كانت تعرف بـ : تافـراوت ، و هي الموطن الأصلي لقبيلة بني ورياش التي كانت من بين القبائل التي احتضنت مقاومة الأميـر عبد القادر ، احتلها الفرنسيون في 09 فبراير 1842 ، أنشأ بها مركز إستيطاني يضم الأوربيون و بعض الأهالي الميسورين ، كما كانت مقر البلدية المختلطة التي أنشأت سنة 1867 .

5- جـاءت صياغة نص قرار التأسيس كما يلي :

« 09 Mars 1945 , déclaration à la sous préfecture de Tlemcen . Association de la culturelle musulmane de Sebdou . But : combattre les fléaux sociaux jeu de hasard , paresse , ignorance , ainsi que tous ce qui est par sa nature interdit par la religion , etc , siège social , chez le président Rue commerçant Sebdou »

6- كانت هذه الشخصيات نموذجا للبرجوازية الحضرية المحافظة المالكة لثروة عقارية و تجارية انخرطت في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء ،و استطاعت تعبئة سكان سبدو و ضواحيها حول هذا المشروع و تجلى ذلك من خلال تبرعاتهم لإنجاز المدرسة ودفعا الاشتراكات.

7- عمـار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص9 .

8- الشهـاب ، أكتوبر 1934

9- بن يوب محمد ، القبيلة و الدولة في الجزائر من الغزو الاستعماري إلى عهد الدولة الوطنية ، رسالة دكتوراه دولة في الأنثروبولوجيا ، جامعة تلمسان 2010 ، ص 184 .

10 - A.Merad , le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 Mouton , lahaye , 1967 , p270

11- عمـار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص9

12- الشهـاب ، أفريل 1936

13- عبد الحميد ابن باديس ، كتاب آثار ابن باديس ، أعداد و تصنيف عمار طالبي ، مج2 ، ج3 ، ص ص 331- 332

14- بن يوب محمد ، مسيرة كفاح من سبدو إلى الشلف ، مذكرات المجاهد بلكبير محمد ، دار كنوز للإنتاج و النشر ، تلمسان ، 2014 ، ص 34 .

15- عمـار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص 10

16- المرجع نفسه ، ص 186 .